باب المراسلة والمناظرة

الطوفان

حضرة الأستاذ اسماعيل مظهر

لما كنا ندرس علم الحيوان في الجامعة الأميركية في بيروت كان بين أيدينا كتاب مطوّل له مقدّمة تزيد على عشرين صفحة تعرض مذهب داروين في «أصل الأنواع» وتسلسل الانسان. فقال الأستاذ: تتجاوز الآن هذه المقدمة ثم نعود اليها بعد ان ننتهي من الكتاب. ولما عدنا اليها كانت أسئلة الطلبة تمطر الأستاذ عما بين هذا الموضوع ونصوص التوراة بشأن الخليقة وغيرها من الأساطير العبرانية من التناقض. فلما عجز الأستاذ عن التوفيق بين العلم والتوراة قال: أرجو ان تعلموا انه متى اختلف العلم والتوراة في مسألة كان الحق مع العلم. وأما نص التوراة فيجب ان يؤوّل تأويلاً يتفق مع العلم لأن التوراة لم تكتب في عصر العلم الحديث بل كتبت في عصر لا علم فيه سوى الأساطير والخرافات. أما الآن فنحن في دور من العلم لا يمكن أن يخضع للأساطير والترهات.

* * *

والظاهر من مقالتك أيها الأستاذ في مقتطف مايو التي سردت فيه جميع نظريات العلماء الأولين والآخرين بشأن الطوفان دلالة على ان العلماء كانوا حتى أوائل القرن التاسع عشر يعتقدون ان الطوفان حدث فعلاً كما وصفه كاتب سفر التكوين. أي انه كان شاملاً كل سطح الأرض وكان مرتفعاً حتى غمر جبال أراراط. وهذا بالبديهة أمر غير معقول لأنه يستلزم أن يكون في الكرة الأرضية وجوّها ماء يزن نصف وزنها على الأقل.

وهذا يستلزم أيضاً ان يكون ماء البحر قد نقص فهبط نحو خمسين متراً مقابل ما يتحول منه الى بخار وثقل به الهواء الجوي فهبط جليداً. وتصور [illegible] من غير المعقول من مقتضيات هذا الطوفان الخرافي.

حكاية الطوفان أسطورة نقلها اليهود كما نقلوا غيرها من أساطير الكلدانيين والآشوريين والبابليين من سكان ما بين النهرين وما حولها أخذها اليهود حين كانوا في بابل بعد أن غزا نبوخذ نصر أورشليم وساق اليهود سبايا الى بلاده ومكثوا هناك عبيداً نحو ٧٠ سنة الى أن غزا كورش الفارسي بابل فأطلق سراحهم وعادوا الى وطنهم .

قبل ذلك التاريخ لم يكن لليهود تاريخ ولا توراة ولا أسفار موسى ولا غيرها لأن الكتابة كانت رسوماً وصوراً فلا تحتمل أن تُكتب بها أسفار مطولة . وما صارت بحروف صوتية إلاّ بعد أن استنبط الفينيقيون الأبجدية ولم يكن ذلك قبل ٦٠٠ سنة قبل الميلاد المسيحي .

فلما عاد اليهود من سبيهم الى أورشليم جعل أحبارهم يصنفون تاريخهم في توراتهم : بعضه كما تناقلوه بالتواتر عن أسلافهم فكانوا يحررونه كما يتراءى لهم وكما تمليه عليهم شهواتهم ومآربهم . فزجوا معظم الأساطير البابلية والأشورية والكلدانية التي توافق شهواتهم ورغباتهم بعد أن عدلوه لكي يتفق مع عقائدهم . فكتبوا أخبار رحلة أجدادهم من مصر بقيادة موسى ثمّ حروبهم مع الكنعانيين وغيرهم من سكان فلسطين بقيادة يشوع الى غير ذلك مما تراءى لهم والله يعلم كم في هذه القصص من الصحة والصدق .

وكان خبر الطوفان من جملة ما انتحلوه من أساطير ما بين النهرين وما حولها . وبالطبع عدّلوه كما اقتضت رغباتهم . والمفهوم من نص التوراة أن الطوفان حدث في تلك البلاد القريبة منهم ولم يحدث في فلسطين وطنهم . ولذلك استقرّت سفينة نوح في أحد جبال أراراط المشرفة على العراق . ولم تستقر في أورشليم ولا في الأردن . وإذا قارنت بين أسطورة الطوفان البابلية وأسطورته اليهودية لا تجد فرقاً إلاّ في الأسماء والأشخاص فلا يبقى عندك [illegible]ك في أن أسطورة الطوفان اليهودية مقتبسة من الأسطورة البابلية .

* * *

وعند اليونان أسطورة طوفانية أيضاً بعيدة الشبه عن الاثنتين . والغالب أنها مقتبسة أيضاً لما كان بين الأمم اليونانية والشرقية من الاتصال التجاري .

وفي بعض البلاد في جنوبي آسيا أساطير طوفانية حتى في جنوبي أوربا أيضاً وهو أمر يدل على أن لحكاية الطوفان أصلاً يمكن تعليله بما يأتي : —

فهو معلوم أن في العصور الجيولوجية الاخيرة ما يدل على أنه كانت تتوالى نوبات جليدية من حقبة الى أخرى تغمر سطح الارض الشمالي مدة سنين ثم ينقطع هبوط الثلوج فيذوب بحر الارض ويتدفق في السهول والوديان ويغمرها الى ارتفاعات غير مألوفة. والعلماء يسمون هذه النوبات بالأعصر الجليدية فتتوالى كل عشرة آلاف الى ٢٥ ألف سنة لعوامل متيورولوجية . ولعلَّ العصر الجليدي الأخير كان سبب هذا الطوفان . أو أن هذا الطوفان الذي تناقلته الأساطير اشارة الى العصر الجليدي .

* * *

ولا يخفى أنه كلما تواتر الخبر وتناقل الناس رواياته وتقادم زمنه تعاظم قدره كما هو معلوم من طبيعة البشر في الروايات .

هذا إن صحَّ أن لخبر الطوفان أصلاً يستحق أن يتناقله الناس كالفيضان الذي يحدث أحياناً في وادي النيل . فاذا كان مرة عظيماً تناقل القوم خبره . وكلما انتقل من جيل الى جيل عظم شأنه . ولكن مثل هذا التعظيم أو المبالغة لم يعد ممكناً في عصرنا الذي انتشر فيه العلم والتعليم والنشر والطبع والكتب التي تسجل كل كبيرة وصغيرة .

فطوفان نوح وفلكه كما روي في التوراة خرافة أكثر مما هو أسطورة أو تاريخ . وما أسخف من العبرانيين الذين دوَّنوه وجعلوه لنا تاريخاً مقدساً إلاَّ السفهاء الذين ألفوا بعثة لكي تبحث عن فلك نوح في جبال اراراط . والظاهر أن هذه البعثة يهودية لأنه ليس أحد غير اليهود يتاجرون بترَّهات توراتهم كما يتاجرون بالاكاذيب والسخافات للتضليل. ولسوء الحظ أنهم في كل عصر يجدون من يصدق أكاذيبهم حتى من كبار الساسة والحكام . فسبحان [illegible] عليم ولم يعلم إلا قليلاً .

نقولا الحداد

نظرات في مسائل نحوية

هناك بعض المسائل النحوية التي يعسر على الطالب الاحاطة بها احاطة ثابتة لا يأتيها النسيان نظراً لتشعب قواعدها واختلاطها بعضها ببعض أولاً، ولاعوجاج تخريجها ثانياً، ولشيوع صيغة شواذها في الكلام المتداول ثالثاً، ولعدم انطباق قاعدتها في الكلام انطباقاً لا يعتوره الشذوذ، ولصعوبة تطبيقها من غير الاستعانة بالمعاجم (المعاجيم) أخيراً. ومن هذه المسائل:

١ — مسألة الأفعال اللازمة والمتعدية في آن واحد.

هناك أفعال — ومنها جاء، أتى، هبط ... — تجعل الانسان في ارتباك عند اعرابها وتصريفها ما لم يستعن بمعجم والى متى يبقى في هذه الحال؟ واللغة وخاصة قواعدها تحتاج الى التبسيط. أليس من الأحسن أن نطبق عليها قاعدة التعدي بحرف الجر ونعتبر مفعولها — إن كانت متعدية — منصوباً بنزع الخافض (أي باسقاط حرف الجر) في مثل قولنا (مررت الدار) أي بالدار وقوله تعالى (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أي كالوا لهم ... وبناء على هذا يكون القول جئت البيت بمعنى جئت الى البيت فيسهل التعليل الاعرابي ويستغنى عن المعجم في البحث عن هذه الأفعال.

٢ — مسألة تأنيث الفعل وتذكيره مع جمع التكسير وغيره والوصف بالمفرد.

يقول النحويون إن الفعل يجوز تأنيثه أو تذكيره مع الجمع فتقول كان الناس أو كانت الناس، كما يجوز الوصف بالمفرد للجمع ككريات حمراء كما يجوز القول كريات حمر. وهذه المسألة طرقها الكثيرون وأتوا بتآويل مختلفة مما تشتت ذهن القارىء عن استيعابها ولي فيها رأي مأخوذ من قاعدة حذف المضاف والاستعاضة بالمضاف اليه عنه وهي قاعدة معلومة مشهورة في كتب النحو وأمثلتها قوله تعالى (واسأل القرية التي كنا فيها) أي أهل القرية. (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) أي جاء أمر ربك. (وأشربوا في قلوبهم العجل) أي حب العجل. إذن أليس من السهل أن نؤول (كان الناس) بمعنى كان مجموع الناس (وكانت الناس) بمعنى كانت جماعة الناس على اعتبار حذف المضاف وانابة المضاف اليه عنه حيث يصبح في اعرابه كالمفرد، وكذلك نؤول كريات حمراء على معنى مجموعة كريات حمراء، وكريات حمر على عدم تقدير حذف المضاف. فتنتهي المشكلة وكذلك الاخبار بالمفرد ينطبق عليه نفس التعليل.

٣ — مسألة الصيغ الخمس التي يستوي فيها المذكر والمؤنث .

وهذه الصيغ هي فعول بمعنى فاعل كصبور ، فعيل بمعنى مفعول كقتيل ، ومفعال كمعطار ومفعيل كمعطير ومفعل كمهذر . ويلحق بها الأوصاف الخاصة بالنساء وبعد أن يعدد النحويون مواطن مجيء التاء وكيف أنها تأتي تارة للفرق بين المؤنث والمذكر ولتأكيد المبالغة كنسابة وللمبالغة كراوية وللوحدة كورقة أو للعوض كعدة أو للدلالة على النسب كمهالبة . ثم المواطن التي تلحق بها التاء بعض هذه الصيغ حتى يصبح المرء في ارتباك من تداخل القواعد . مع أن هناك قاعدة يذكرها رحمه الله الزمخشري في مفصله وهي أن التاء قد تأتي لتأكيد التأنيث في مثل الكلمتين ، ناقة ونعجة . إذن لماذا لا نطبق هذا التخريج التأكيدي على كل الصيغ فنقول قتيلة وصبورة كما هو شائع ومستعمل في كلام الناس لا سيما وأن بعض النحويين اعتبر هذه الكلمات — عدوة وميقانة ، مسكينة ، معطارة — شاذة وهي عندي ليست كذلك إذ يمكن حملها على تأكيد التأنيث . وحينئذ لو تمم قاعدته كل الصيغ السالفة كما بينت . هذا ولا ضير على من يستعملها كما مبينة في كتب النحو كما لا ضير على من يستعملها على تخريج التأكيد .

٤ — في إعراب المنادى .

يقرر النحويون أن المنادى المفرد العلم والمثنى والمجموع يبنى على ما يرفع به [illegible] لحسابه من الأسماء المنصوبة وهو كذلك ويخالف الكوفيون على اعتباره [illegible] ذلك برهان مقنع من قبل البصريين ، وإني أرى أن هذا المنادى يجب أن [illegible] بالأسماء المرفوعة . وذلك لأن الاسم المعرب إما أن يعرب بالحروف أو بالحركات [illegible] الحروف علامة [illegible] فكيف إذن ساغ لنا أن نعرب (يا محمدان) على اعتباره مبنيًا [illegible] مع أن الألف أو الواو [illegible] علامتي إعراب كما هو متفق عليه ومعروف . [illegible] أن نعربه نائب فاعل لفعل مبني للمجهول محذوف تقديره يُدعى محمد [illegible] يدعى محمدان بدلًا من قولنا [illegible] وحينئذ يستوي التقدير وننحط كما استقرينا [illegible] أقسام [illegible] .

هذه بعض [illegible] بالغاية من النحو إلى التبسيط والتسهيل [illegible] بعض القواعد الشاذة قديمًا [illegible] التي [illegible] أولى من تلك التي [illegible] وذلك لأن [illegible] إلا [illegible] الذي [illegible] إلى [illegible] من النحويين أن يعملوا إلى تقريب النحو وتبسيطه [illegible] جديد [illegible] التقديم مؤثرين التبسيط على التعقيد والتوليد على التجديد أو التقليد

القرنة — البصرة

[illegible] السعدي

حول ذاكرة حافظ ابراهيم والمغربي

حضرة صاحب العزة رئيس تحرير المقتطف

قرأت في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٢ محاضرة للعلامة الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي ألقاها في حفلة تأبين حافظ ابراهيم في المجمع العلمي بدمشق وقد جاء في الصفحة ٥٦٥ من الجزء المذكور قوله :

«وقد اتفقت كلمة من ترجم لحافظ كما اتفقت كلمة فضلاء دمشق الذين حضروا مجالسه في زورته الأخيرة لبلادهم أنه أبرع اخباري وأظرف نديم عرفوه في حياتهم ولولا وقار (مأتم التأبين) لروينا لحضراتكم شيئاً من ملحه الأدبية مما يدل على شدة ذكائه وقوة حفظه

«على اني مهما أغفلت ذكر خبر من أخبار حفظه لا أحب أن يفوتني ذكر خبر مستغرب اتفق له مرة في نسيانه. ذلك أن (حافظاً) يحفظ أخبار الأولين والآخرين ويروي ما يحفظه بكل دقة وتثبت ولكنه مع هذا ذهل مرة عن خبر (قصر الجزيرة) الذي كان للخديوي اسماعيل ثم اتخذ فندقاً لكبار السياح ثم صار قصراً لآل لطف الله. فروى لنا (حافظ) ان هذا القصر أصبح (بستان حيوان) وذلك قوله من قصيدة نشرت في ديوانه المطبوع سنة ١٩١١ (ولم نجدها في ديوانه المطبوع سنة ١٩٢٢) يصف فيها ذلك القصر بقوله :

كنت بالأمس جنة الحور يا قصـ ـر فأصبحت جنة الحيوان

«وعلق على ذلك بقوله : ولعمري إن نسيان (حافظ) لخبر هذين القصرين اللذين هما على مرمى سهم من نظراته، ولطالما لمحهما في غدواته وروحاته أمرٌ مستغرب جداً نرويه في غرائب أخباره بعد مماته كما كان رحمه الله يروي غرائب أخبار من كان قبله في حياته. وهذا النسيان من (حافظ) يشبه ما روي عن الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده أنه استأذن يوماً على بعض أمرائه فسأله الحاجب عن اسمه فأطرق يتذكر.

ونحن نقول للعلامة الجليل إن (حافظاً) لم ينس ولم ينسَ أن حديقة قصر الجزيرة كانت يوماً ما مسرحاً للحيوان قبل أن تنقل الى مكانها الحالي المعروف بحديقة الحيوان بالجيزة. وعلى ذلك فان حافظ (حافظاً وذاكرته قوية) لم يكن ناسياً ولا ساهياً ولا ذاهلاً، بل كان كاتباً مؤرخاً كما يشهده الأستاذ. كما نرى تصحيح ذلك تأييداً لقولنا حضرات محققي النسخة التي أخرجتها وزارة المعارف عام ١٩٣٧ لديوان حافظ. ذكرنا ذلك انصافاً له وللتاريخ

عبد الرزاق أبو السعود